ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

طقوس الولادة والموت
عند مورسكيو هورناتشوس

محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث في تاريخ وحضارة الأندلس
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تسببت معركة العقاب (١٢١٢ ميلادية) بين الموحدين والقوات المسيحية المتحالفة في استيلاء مملكة قشتالة على كل مناطق غرب الأندلس، التي تعرف حاليًا باسم إشترمادورا، فتحول سكانها الذين رفضوا المغادرة نحو المناطق الخاضعة للسلطة الإسلامية إلى مدجنين إلى غاية سنة ١٥٠٢، وهي السنة التي صدر فيها مرسوم التنصير الإجباري، ومعه تم تفعيل محاكم التفتيش ضد كل من كان يقوم بشعيرة أو عادة إسلامية. ورغم المتابعات والملاحقات والعقوبات القاسية، فقد تمكن مورسكيو هورناتشوس من الحفاظ على ملامحهم الحضارية إلى غاية سنة ١٦٠٩، وهي السنة التي صدر فيها مرسوم الطرد الإجباري، فغادروا بلدتهم وسكنوا الرباط، وهناك تمكنوا من تأسيس جمهورية مستقلة مارست الجهاد البحري لعدة عقود وكان لها صيت عالمي. تهدف هذه المقالة، ومن خلال الاستعانة بوثائق محكمة التفتيش بلبرينة، إلى الوقوف عند أحد مظاهر حفاظ المورسكيين على خصوصياتهم الدينية والحضارية، أي طقوس الولادة والوفاة، وذلك من خلال تتبع ما ورد في تلك الوثائق، وخصوصا محاضر محاكمة عدد من المورسكيين الهورناشيين. وتندرج هذه المقالة ضمن ما يعرف بتاريخ الذهنيات، حيث حاولت تتبع طقوس المورسكيين عند الولادة وعند الموت، مع محاولة البحث عن أصول تلك الطقوس وامتداداتها في الحاضر. هذا وقد قُسمت المقال إلى ثلاث أقسام؛ الأول: يتضمن الطقوس المتعلقة بالولادة، وهي نوعان الطقوس المسيحية كالتعميد والتثبيت، والتي كانت تجري بشكل علني لإظهار الالتزام بالمسيحية. والشعائر الاسلامية كالختان والتسمية، بالإضافة إلى طقس لم تعرفه المجتمعات الإسلامية في البلدان الأخرى، وهو ما أسميناه بطقس مسح التعميد. الثاني: يركز على الخصوصيات الجنائزية لجماعة مورسكيي هورناتشوس. الثالث: يركز على العقوبات الجماعية والفردية التي كانت تصدرها محاكم التفتيش عقابا لكل من ثبت قيامه بطقس من الطقوس الممنوعة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ نوفمبر ٢٠١٣
تاريخ قبول النشر: ٢٤ نوفمبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الغرب الأندلسي، محاكم التفتيش، الهوية الإسلامية، شبه الجزيرة الإيبيريّة، الموريسكيون

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عبد المومن. "طقوس الولادة والموت عند مورسكيو هورناتشوس".- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٦. ص٥٩ – ٦٧.

مُقَدِّمَة

حظي مورسكيو هورناتشوس[١] دون غيرهم من الأندلسيين الغرباء باهتمام بالغ، من طرف الباحثين والمهتمين بالدراسات الأندلسية عامة، والمورسكية بشكل خاص، لكونهم استطاعوا (بمعية مورسكيين آخرين) تشكيل كيان سياسي عند مصب أبي رقراق استمر ردحًا من الزمن، وتمتع بشهرة واسعة بسبب عمليات الجهاد البحري التي شملت البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، بل وبلغت في بعض الأحيان إلى أقصى شمال أوربا وحتى إلى سواحل العالم الجديد. لكن المورسكيين الإشترمادوريين[٢] شكلوا حالة خاصة حتى قبل طردهم من إسبانيا، فبفضل وثائق محكمة التفتيش بلبرينة[٣] التي رسمت لنا ملامح المجتمع المورسكي بإشترمادورا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر أصبحنا نعلم أن الأندلسيين

الغرباء من سكان اشترمادورا عامة، والهورناشيين بشكل خاص، كانوا أكبر ضحية لمحاكم التفتيش الإسبانية.

استولى القشتاليون على مدينة بطليوس[٤] سنة ١٢٣٠، أي بعد معركة العقاب بثمانية عشرة سنة، وبعد سنوات قليلة من هذا التاريخ كانت جل مناطق الغرب الأندلسي قد سقطت في يد الممالك المسيحية الإيبيرية، وخصوصًا في يد قشتالة. لكن النسبة الأكبر من السكان المسلمين فضلوا البقاء في قراهم وبلداتهم، وصاروا جزءًا من الكتلة البشرية التي عرفت باسم المدجنين.[٥] ومع بقائهم تحت سلطة المسيحيين بدأت مرحلة جديدة، عنوانها ومشروعها الكبير هو الحفاظ على الهوية الإسلامية، وهو مشروع كان مسموحًا قانونيًا به إلى حدود سنة ١٥٠٢، تاريخ فرض التنصير الإجباري على مسلمي قشتالة، ومن خلال الوثائق الرسمية والكنسية التي وصلتنا صرنا متأكدين أن المسلمين الإشترمادوريين عامة، والهورناشيين خاصة تمكنوا من الحفاظ على وجودهم لعدة قرون كما تمكنوا من الحفاظ على الكثير الشعائر والملامح الحضارية الإسلامية، وقد اخترت في هذه المقالة أن أقف عند شعائر الولادة والموت عند هؤلاء المورسكيين الذين عاشوا في إشترمادورا تحت سلطة القشتاليين إلى أن تم طردهم سنة ١٦٠٩، أي بعد حوالي أي بعد حوالي أربعة قرون من استيلاء هؤلاء على منطقة غرب الأندلس، وقد فرض علي انعدام مصادر عربية، البحث عن مصادر بديلة فكان لابد من البحث في الوثائق القشتالية.

قبل كتابتي لهذا الموضوع، قرأت ما كتبه بيدرو لونغاس في كتابه: "الحياة الدينية للمورسكيين"[٦] ووجدت أن ما ذكره في الكتاب لا يكاد يختلف عن الشعائر والشرائع الإسلامية الأصلية، فأين هي الخصوصيات المورسكية؟ إلا أو وقفت على مجموعة من الوثائق القشتالية التي يعود معظمها إلى بداية القرن السابع عشر وهي في ملفين يحملان الرقم (٢٧٠٧) والرقم (٢٧١٠) والمحفوظان بالأرشيف التاريخي الذي يوجد في بلدة سيمنكاس (الأرشيف التاريخي الوطني رمزنا له بالحروف التالية A.H.N) وهذه الوثائق تعود أغلبها إلى محكمة التفتيش التي كان مقرها بلدة ليرينة وهي:

النوع الأول: عبارة عن محاضر محاكمات لمجموعة من المورسكيين وهي تتكون من وهذه المحاضر تتضمن في قسمها الأول ما صرح به الشهود (الوشاة) من مخالفات تقتضي عقاب محكمة التفتيش وقسمها الثاني يتضمن العقوبات الصادرة في حق المتهمين وقد عثرنا في هاذين الملفين على ٣٠ محضرًا (١٨ رجالاً و١٢ امرأة) هذه المحاضر كتبت في وثيقة واحدة تحمل العنوان التالي: **"المحاكمات التي تبعت زيارة المفتش ألكسندري دي بوسادا لبلدة هورناتشوس بتاريخ ١١ أكتوبر١٦٠٨".**

النوع الثاني: عبارة عن تقارير بعث بها بعض رجال الدين ورجال السلطة إلى كبار مفتشي محكمة التفتيش يشرحون فيها طبيعة المخالفات التي تنتشر في صفوف سكان البلدة ويطالبونهم بالتدخل.

النوع الثالث: عبارة عن مراسيم وقرارات صدرت إما عن محكمة التفتيش، وإما عن مؤسسات رسمية أخرى.

وقد ترجمت تلك الوثائق بأكبر قدر من الدقة والموضوعية، رغم الصعوبات المرتبطة أساسًا باللغة التي كتبت بها أي باللغة القشتالية القديمة، فكثير من كلماتها وتراكيبها تختلف اختلافًا بينًا عن القشتالية المعاصرة.

أولاً: طقوس الولادة

خير مرسوم التنصير الإجباري الصادر سنة ١٥٠٢، مسلمي قشتالة بين الدخول في المسيحية، أو الرحيل، أو الموت، وبالتالي أصبح على مَنْ يريد البقاء في أرضه وبلده من الأندلسيين، ملزمًا بالدخول في الدين المسيحي، مع ما يتبع ذلك من التزام بالطقوس المسيحية، والابتعاد عن كل ما يمكن أن يربطه بالدين الإسلامي، ومظاهر الحضارة الإسلامية، خصوصًا بعد صدور مراسيم المنع وتفعيل محاكم التفتيش ضد المسلمين، وبذلك صار المسلمون ممزقين بين دينهم الموروث عن آبائهم وأجدادهم، والدين الجديد الذي فرض عليهم، ولكنهم وجدوا الحل في التظاهر بالمسيحية، وحصر الإسلام في القلوب والأركان الخفية العصية عن الأعين.

١/١- الختان:

من الشعائر الإسلامية التي حافظ عليها الهورناشيون، نجد شعيرة الختان الذي يعد من شعائر الإسلام الأساسية ويتبين من خلال الوثائق أنهم كانوا حريصين عليه، رغم أن هذه الشعيرة جرَّت كثيرًا منهم إلى الدهاليز السرية لمحاكم التفتيش، ويبدو أنه كان للمورسكيين الهورناشيين متخصصون في الختام، كما كان لمحكمة التفتيش أطباء متخصصون في التعرف على المختونين من بين المساجين المودعين في سجون الديوان المقدس، وفي يلي مقتطف من رسالة كتبها كاهن كنيسة هورناتشوس لكبير مفتشي ديوان التفتيش المقدس:

"ومما يؤكد فساد هؤلاء الناس كثرة مثولهم أمام المحاكم بتهم مختلفة، منها حيازة نسخ من القرآن، وترويج السكة المزيفة، وممارسة الختان، وقد رأيت بأم عيني أطفالا مختونين لا يتجاوز عمرهم بضعة أيام، وعندما تسأل الوالدين عن سبب كونهم طفلهم مختونا يجيبونك بأنه ولد على تلك الحال، وهنا أشير إلى أن القانون القديم لا يعاقب على هذه الجريمة، ولهذا السبب يقوم الآباء والأمهات ختن أطفالهم وهذا يؤكد لنا مدى التزام هؤلاء الناس بنحلتهم الملعونة".[٧]

كما هو واضح فهذه الوثيقة تتضمن مجموعة من التهم من ضمن أخرى كثيرة حوكم بسببها مورسكيو هورناتشوس، ولكن ما يهمنا في هذه الوثيقة، هو التوقيت الذي كان المورسكيون يختنون فيه أبنائهم، فهذا الكاهن يؤكد أن الأطفال المورسكيين كانوا يختنون أطفالهم خلال الأيام الأولى لولادتهم، وهذا في نظرنا مخاطرة كبيرة ليس بالنظر إلى عمر الطفل وطبيعة أدوات الختان، وإنما لأنهم

بختان الطفل ثم حمله إلى الكنيسة ليتم تعميده يخاطرون بانكشاف أمرهم، وبالتالي تعرضهم لعقوبة محاكم التفتيش وما أفظعها من عقوبة.

الوثيقة التالية وهي محضر محاكمة المورسكية مايو ردي كارديناس قد تلقي مزيدًا من الضوء على هذه الممارسة:

"مايور دي كارديناس MAYOR DE CÁRDENAS زوجة دييغو باكيرو، أصلها من بلدة هورناتشوس وبها تقيم، عمرها ستة وعشرون سنة، أبلغ بها سنة ١٦٠٦ رجلان، قالا بأن لها طفلا مختونا، كما قال الراهب الذي عمد الطفل أنه لاحظ أثناء تعميد الطفل أن عضوه الذكري متغير اللون وأنه مخضب باللون بالأخضر، وأن من الواضح أنه قد تعرض للتخضيب بمادة معينة. بعد التعميد، أخذ الراهب الطفل إلى كاهن البلدة وأعلمه بالواقعة ليتم التحقيق ظروف ولادة هذا الطفل. اشتبه الكاهن في أن يكون الطفل قد ختن عمدًا، فطلب حضور الجراح، الذي حضر وعاين الطفل، وخرج بنتيجة مفادها أن الختان في العضو الذكري للطفل تم بفعل فاعل. فأمر الكاهن باعتقال الأبوين وإيداعهما في السجون السرية مع مصادرة أملاكهما وبالبدء بالتحقيق في الواقعة. عند الاستماع إلى إفادة الشهود نودي على جَرَّاحَيْن ليدليا بشهادتهما تحت القسم، فاتفقا على أن القلفة قد تم استئصالها، وأن الجرح دليل على أن الأمر قد تم باليد.

خلال أطوار المحاكمة، أنكرت الأم المتهمة ما نسب إليها، وقالت أنها مسيحية ملتزمة تعترف بانتظام، وتحضر القداس، وقالت أنها مباشرة بعد ولادة الطفل لاحظت أنه مختون، وقالت العرّابة أنها مباشرة بعد ولادة الطفل ذهبت به إلى راهب ليرى الطفل ويشهد بذلك عند الحاجة، ونفس الشيء ذكره نساء أخريات حضرن الولادة، وعندها تم رفع جلسة المحاكمة لأجل التشاور ومع وقف تنفيذ أية عقوبات. وبعد ذلك استؤنفت المحاكمة، بناء على طلب تقدم به المدعي العام، بعد أن اعترفت المتهمة تحت التعذيب، بأنها ختنت الطفل بنفسها بمقص، وأنها تعلمت الكيفية من مورسكيان متوفيان، أحدهما من غرناطة، والآخر من هورناتشوس اسمه كوريون، وأضافت أنها قبل أن تشرع في ختان الصبي قالت: "باسم الله، والله أكبر" "Vizmilac Ala Cobar"، وأن ختانها للصبي سببه التزامها بشريعة محمد، لأنها أفضل من شريعة يسوع، وأنها على علم بأن الختان مناقض للإيمان الكاثوليكي.

أمام المحكمة، تراجعت المتهمة عن أقوالها، وقالت أنها اضطرت للاعتراف خوفا من التعذيب، وبأنها لم تقم قط بختن طفلها، لكن في المقابل اعترفت طواعية بأنه قبل ثمان سنوات، وبينما كان وباء الطاعون منتشرا في هورناتشوس، جاء إلى البلدة رجل مورسكي لا تعرف اسمه، قادما غرناطة لطلب الصدقات، فعلمها الدعاء الذي ذكرت سابقا، وقالت أن معناه: "الله أكبر"، وقال لها أنه ينجي من الطاعون، بشرط النطق ثلاث مرات في اليوم، وأضافت أنها ظلت ترده شهرين متتابعين، وأن موجة الطاعون خلفت الكثير من الضحايا، لكنها وعائلتها لم يصبهم سوء، فاعتقدت أن الدعاء الذي علمها ذلك المورسكي هو السبب، كما ظنت أن ترديد الدعاء تشريفا لمحمد سيدخلها وأسرتها الجنة.

عندما أعيدت المتهمة إلى السجون السرية، وجرى تعذيبها من جديد، صرحت بما كانت قد اعترفت به أول مرة، أي بأنها ختنت الطفل التزاما بشريعة المسلمين. لكن عندما أعيدت إلى المحكمة، عادت وأنكرت ذلك، وأعادت سرد الواقعة المتعلقة بنجاتها من وباء الطاعون".[٨]

٢/١- التعميد والتثبيت:

كان الطفل المولود لأبوين مورسكيين من هورناتشوس يمر بطقس ثان، (طبعًا إن نجا أبواه من قبضة محاكم التفتيش)، وهو طقس مهم بالنسبة للمسحية الكاثوليكية، وأحد أسرارها السبعة المقدسة، حيث كان الوالدان يأخذان الطفل المولود حديثًا إلى الكنيسة، فيتولى الكاهن تعميده باسم الأب والابن والروح القدس مع صب الماء على رأسه، أو على جبينه فقط في حالة الضرورة. كما يعين للوليد عراب يشرف على تعليمه وتربيته الدينية خصوصا إلى أن يكبر. وبعد التعميد يخضع الطفل لطقس ديني مسيحي آخر وهو المعروف بسر التثبيت أو سر الميرون، وهو أيضًا من الأسرار السبعة المقدسة عند الكنيسة الكاثوليكية، حيث يقوم الكاهن بمسح المولود بالزيت المقدس في مواضع عديدة من جسمه، وذلك لتثبيت التعميد و"إغلاق المنافذ التي يمكن أن يدخل عبرها الشيطان"، حسبما تنص على ذلك العقيدة الكاثوليكية. ويحضر هذا الطقس والدا الطفل بالإضافة إلى العراب الذي تم تعيينه للإشراف على تعليم الطفل. هذين الطقسين المسيحيين كانا يتمان بشكل علني لإظهار الالتزام بالدين المسيحي، لكن الطفل المولد لأبوين مورسكيين من هورناتشوس، كان يحتفل به أيضًا بطقس آخر الهدف منه إلغاء الطقوس المسيحية وإزالة أثارها المادية والمعنوية.

٣/١- مسح التعميد: (Desbautizacion)

تمكننا وثائق محكمة التفتيش التي كان مقرها ليرينة من الوقوف على طقس غامض، لم يعرفه المسلمون الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي، لكنه كان طقسا أساسيا بالنسبة لمورسكي هورناتشوس، - وربما للمورسكيين الذين كانوا يقيمون في مناطق أخرى لكننا لم نتأكد من ذلك لعدم اطلاعنا على وثائقها – ، وسنحاول الإحاطة ببعض جوانب هذا الطقس الذي أسميناه **طقس مسح التعميد (بالإسبانية Desbautizacion)** في حدود ما تسمح به الوثائق.

جاء في أحد التقارير ما يلي: "دأب الهورناشيون على مسح زيت التعميد عن أطفالهم، في موضعين أو ثلاثة مواضع يسمونها بـ "المورکي"، وهذا معروف ومشهور. وفي السنة الماضية كنت مع عدد من المسيحيين أحدهم من القدماء، فدخلنا كهفا عادة ما تكون فيه

المياه، فوجدنا في داخله عشرين حلية من الحلي التي عادة ما توضع للمواليد الجدد، وبعض تلك الحلي كان يبدو جديدًا، ومن الممكن إعادة استعمالها، كما وجدنا في داخل الكهف عددًا من القمصان وقطع القماش... وقد أخبرني أحد المسيحيين القدماء، وهو نفسه الذي رافقني إلى الكهف بأنه قبل أربعين سنة دخل إلى ذلك الكهف، ورأى فيه مثلما رأينا في ذلك اليوم، لكن الخوف من التعرض للانتقام سيطر عليه، وبالتالي فضل الصمت وامتنع عن إخبار أي أحد".[٩]

وفي رسالة كتبها عمدة البلدة إلى الملك نجد ما يلي: "يقصد المورسكيون علانية ثلاثة مواضع بالبلدة ليمحوا ويزيلوا آثار التعميد، وقد قصدت بنفسي الموضع المعروف بموركي وهو يوجد بالمكان المعروف بـ "بويرطو دي بالوماس"، حيث وجدت هناك ملابس للصبيان، عددًا من الجرار المحطمة، أباريق الجديدة، شعيرًا زيبيًا، وحداوي أحصنة، وقطعًا نقدية، دون أن نعرف يأتي إلى هذا المكان من سكان البلدة ".[١٠]

يعود تاريخ هاذين النص إلى بداية القرن السادس عشر، وهما يلقيان بعض الضوء على طقس مسح العماد، حيث أنه كان يمارس بعد تعميد الأطفال المولودين حديثا في أماكن بعيدة عن الأعين، وتتوفر على مصدر مائي، ربما نبع ماء، وذلك لإزالة زيت الميرون عن جسد الطفل الذي تم تعميده في الكنيسة، وهذه الأماكن يطلق عليها جميعا اسم موركي (بالإسبانية Morqui) وهي في العادة صهاريج أو ينابيع مائية خفية عن الأعين، إما بسبب كونها محاطة بأسوار، أو لأنها توجد داخل كهف كما هو حال المغطس المذكور في الوثيقة، وخلال طقس مسح العماد يتم التخلص من ملابس الطفل، وحليه لأنها ذات دلالات مسيحية، أو لأنها استعملت في الطقوس المسيحية التي أقيمت للطفل سالفًا والتي يراد التخلص من آثارها ومفعولها لإعادة الطفل إلى جماعة المسلمين، ويبدو أن هذه الممارسة كانت متجذرة في المجتمعات المورسكية، وخصوصًا في منطقة إشترمادورا وأنها على الأقل قد مورست منذ أواسط القرن السادس عشر.

الوثيقة التالية توضح لنا ما كان يقوم به المورسكيون أثناء طقس مسح العماد:

"يملئ طست بالماء، وتنزع ثياب الوليد، ويغسل كل بدنه بالماء مع ترديد أدعية معينة . لم يسمعها الواشي... ولكنه ذكر أنها هي نفسها التي تقال أثناء الوضوء والاغتسال، وبعد الانتهاء يجفف الوليد ويلف في قماط نظيف".[١١]

يوضح هذان النص الثاني طبيعة العمليات التي كانت تتم ضمن ما أسميناه بطقس مسح العماد، أما النص الموالي، فهو يوضح لنا الزمن الذي كانت تتم فيه العملية، ومَنْ كان يشرف عليها، وهو نص مقتطف من محضر محاكمة المورسكي دييغو فانسو:

"أما الشاهد الثالث فقال أنه في وقت متأخر من ليلة شديدة الظلمة، سمع أصوات خمسة أشخاص قادمين، فإذا هم ثلاثة رجال وامرأتان، وكان أحدهم يحمل رضيعًا، ولم يميز أحدا منهم. لقد كانوا قادمين من الموضع المسمى بـ "الموركي"، وأضاف الشاهد أن مورسكيًا أخبره أن مسلمي البلدة قصدوا بيت المتهم بعد تعميد مواليدهم. فتبعهم الشاهد وشاهدهم يدخلون إلى منزل المتهم الذي لم يره وإنما عرفه من خلال صوته لأنه سمعه يتحدث عند الباب، وعندما دخل إلى المنزل قال "بسم الله"، لكن الشاهد لم يفهم معناها، وبعده دخل الأشخاص الخمسة ومعهم الرضيع، وصاروا يتحدثون بصوت مرتفع لكن الشاهد لم يميز أحدا منهم".[١٢]

إذن فقد كانت الساعات المتأخرة من الليالي شديدة الظلمة، هي الوقت المناسب تجنبًا للفضوليين من الرهبان والمسيحيين القدماء، لأن كل ما يمت بصلة للإسلام أو إلى أية ديانة أخرى غير المسيحية الكاثوليكية، كان يعتبر محظورًا في إسبانيا خلال القرون التي نتحدث عنها، عندما كانت محاكم التفتيش تحكم على مَنْ ثبت قيامهم بأي عمل يخالف المسموح به بالموت حرقًا. هذا وتمدنا الوثيقة بمعطى في غاية الأهمية، فـ "دييغو فانسو" وصفه محضر المحاكمة بـ "الفقيه"[١٣] بناءً على وشاية تقدم به ثلاثة أشخاص، ومن هنا نستنتج أن الفقهاء المورسكيين كانوا يحضرون عملية مسح زيت الميرون عن الأطفال الذين تم تعميدهم، ويتلون عليهم أدعية وآيات من القرآن الكريم، ومما لا شك فيه؛ أن المعرفة الدينية عن مورسكي إشترمادورا كانت شحيحة جدًا، بسبب طول مكوثهم تحت الحكم المسيحي وانعدام أي رابط بالعالم الإسلامي.

٤/١- التسمية:

منع مرسوم أصدرته رهبانية القديس يعقوب[١٤] سنة ١٥٥٣ على المورسكيين الهورناشيين التسمي بأسماء المسلمين جاء في هذه الوثيقة ما يلي: "ليعلم الجميع، أنه يحظر على الهورناشيين أبناء المسيحيين الجدد أن يسموا أو يتسموا بأسماء المسلمين. نحن نعلم علم اليقين، من خلال الوثائق التي عرضت على مجلس الرهبانية بوجود عدد من سكان هورناتشوس الذين يحملون أسماء من قبيل فرناندو محمد، بن دي حق، غابرييل علي، وأسماء أخرى مشابهة".[١٥]

ونحن أيضًا نعلم الآن علم اليقين أن المورسكيين استمروا في التسمي بأسماء المسلمين بل وحرصوا على المناداة بها واستعمالها، إلى جانب الأسماء المسيحية التي كانت مفروضة عليهم، لكونهم عاشوا ضمن مجتمع مسيحي وفي عصر عرف تعصبًا شديدًا ضد كل ما هو غير كاثوليكي. جاء في ضمن محضر طويل يتضمن تفاصيل محاكمة المورسكية ماريا دي كويلار، والتي وصفت أيضا بالفقيهة: "وروت الشاهدة أيضًا ما سمعته من المتهمة في مسألة التعميد، فبعد أن يُعَمَّد الطفل يمسح المورسكيين عنه الزيت المقدس، ويعطونه اسمًا من أسماء المسلمين، فإذا كان ذكرًا سُمي أحمد، وإن كانت أنثى سُميت مريم، وقال المتهمة للشاهدة أن الإنجاب يحصل بفضل محمد وليس بفضل المسيح".[١٦]

إذن فعملية تسمية الطفل كانت تتم بعد ختانه، وتعميده في الكنيسة، وبعد قيام الفقيه بمسح زيت الميرون عنه في طقس

أسميناه مسح التعميد، ومما لاشك فيه؛ أن الأسماء العربية كانت تستعمل داخل المنزل، لكن وثيقة أخرى تدل بشكل واضح على أن الأسماء العربية كانت تستعمل أيضًا في الخارج وخصوصًا خلال الأعياد والمناسبات التي كان يحييها المورسكيون، احتفالاً بهذه الذكرى أو تلك. ومسألة الأعياد والاحتفالات المورسكية قضية مثيرة للتساؤل، خصوصًا أن وثائق محكمة التفتيش تتضمن أسماء احتفالات لم تعرفها المجتمعات الإسلامية (العادية).[١٧]

جاء في أحدى وثائق محكمة التفتيش ما يلي: "أما المناسبة الثانية والتي تصادف شهر شتنبر فيسمونها عيد (الهاثيريس)[١٨]، وفي هذه المناسبة يخرج الهورناشيون للحقول، حيث يقصدون كلهم تقريبًا مغارس الكروم، التي في ملكيتهم، فيبنون أكواخًا يتخذونها مساكن وأماكن للاحتفال، فيغنون أغاني تحريضية بأصوات مرتفعة، ويبيتون ليلهم في الغناء والرقص، وينسون أسمائهم المسيحية فلا ينادون بعضهم البعض إلا بالأسماء العربية، وتلبس النساء أبهى الثياب وأجمل الأحذية وبالطريقة نفسها التي كان يلبس بها المسلمون".[١٩]

ثانيًا: شعائر الموت عند مورسكيي هورناتشوس

كان الرهبان والكهنة الذين عاشوا في هورناتشوس خلال القرنين السادس عشر وبداية السابع عشر، يشعرون بالذهول من إصرار السكان على مخالفة أوامر الكنيسة، وتحديهم للعقوبات القاسية التي كانت تصدرها محكمة التفتيش في حق من يثبت قيامه بأمور تخالف العقيدة الكاثوليكية. لقد كانوا ينتظرون ممَنْ يُحتضرون أو يُواجهون الموت، أن يقوموا بالأسرار المقدسة وخصوصًا سر الاعتراف، وسر التناول، وسر مسحة المرضى. كما كانوا ينتظرون من أهل المتوفى أن يستدعوهم للترحم على الموتى ولإقامة قداس الوداع، لكن أيًا من هذا لم يكن يحدث جاء في وثيقة كتبها عمدة البلدة: "في هذه البلدة يسكن ألفا مورسكي لكنهم لا يطلبون أبدًا أن تقام أية قداديس أو طقوس دينية أخرى ترحمًا على موتاهم، فساعة الوفاة لا يأبهون بالطقوس الكنسية الواجب إتباعها، فالقليل منهم فقط يقوم بسر الاعتراف، ولا أحد يقوم بسر التناول أو سر مسحة المرضى، ولا أحد يطلب مساعدة الرهبان أو القساوسة ساعة الاحتضار، رغم أن البلدة تضم ديرًا للرهبان الفرنسيسكان".[٢٠]

أما كاهن البلدة الذي لم يكن من سكانها الأصليين، فقد أدهشه ما رأى فكتب ما يلي: "أما سر التناول المقدس خصوصًا عند الوفاة، فمن بين مئة شخص لا يقوم به حتى عشرة. وفي أيام الصوم الكبير وأيام الآحاد لا يحضر القداديس حتى مئة شخص، وقد يحضر أقل من ذلك بكثير، لأن هؤلاء هم الأسوأ. وقد لاحظت أن أكثرهم مروقًا يقدمون المثال السيء للآخرين، وعندما تسأل عن سبب امتناعهم عن أداء الأسرار المقدسة، كسِّر التناول، وسر الاعتراف، يأتيك الجواب بأن الأغلبية لم تقم به، وهذا يفسر لنا لماذا يموتون دون القيام بالأسرار المقدسة. وهذا في رأيي احتقار لتلك الأسرار، لكن لا أحد يأنبه ضميره... أما عندما يموت احدهم فتراهم يحملونه على أكتافهم دون القيام بالأسرار المقدسة متجاهلين الكهنة الذين لا يريدون إلا المساعدة على إراحة المحتضر أي أنهم يتجنبون أن يحضر الوفاة أي مسيحي ولا يريدون أن يحضر الوفاة إلى الأهل والعائلة كما لا يريدون أية طقوس أو صلوات أو شموع أو مياه مقدسة. كما يوارى الميت الثرى دون مشيعين ودون قداس وبعد الجنازة لا يقصدون الكنيسة للصلاة والدعاء لفقيدهم بل يعودون إلى المنزل الذي توفي فيه وهناك يطعمون الطعام ويقضون ثمانية أيام متواصلة في النواح وسرد المراثي وكل هذا في تكتم تام مثلما هو الحال مع صلواتهم وصيامهم وغيرها من العبادات الإسلامية".[٢١]

ذكرنا سابقًا أن مورسكي هورناتشوس، عاشوا حوالي أربعة قرون تحت الحكم المسيحي (استولى القشتاليون على المنطقة سنة ١٢٣٠) قبل أن يصدر في حقهم قرار بمعزل عن أي اتصال حقيقي بالعالم الإسلامي، أو بمجتمع مسلم خصوصًا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، لذلك فمن الطبيعي أن نجد شعائرهم الإسلامية تضم بعض التفاصيل التي تفردوا بها عن غيرهم من مسلمي المناطق الأخرى.

١/٢- تغسيل الميت:

سنعود مجددًا إلى محضر محاكمة المورسكية مارية دي كويَّار، الذي يتضمن كثيرًا من المعلومات التفصيلية عن عادات المورسكيين وتقاليدهم. وهذه المورسكية وصفها الوشاة الذين أبلغوا عنها بالفقيهة، ويبدو أن هذا الوصف يطابق حقيقتها فقد كانت متمكنة من شعائر المسلمين، وتحفظ سورًا من الذكر الحكيم، والأهم أنها كانت تعلم النساء والفتيات. أما من وشى بها فهن نساء مسيحيات استدعتهن إلى منزلها، وحاولت تعليمهن شعائر الإسلام من صلاة وزكاة وصوم، كما حاولت تلقينهن سورة الفاتحة. وقد جاء في هذا المحضر: "قالت المتهمة للشاهدة شارحة الشعائر التي يتبعها المورسكيون الهورناشيون قائلة: "عندما يموت أحد يحرصون المورسكيون على تطبيق تعاليم الإسلام فيوجهون الميت نحو القبلة ثم يُغسِّلونه بماء معطر بالورود، ويُلبسونه لباسًا جديدًا. فإذا كانت امرأة كفنت في قميصين الواحد فوق الآخر أما، وإذا كان المتوفى رجلا كفن في قميصين وفوقهما قميص صوفي يغطي العنق ولف في كفن جديد. وأضافت الشاهدة أنها لم ترى قط شخصا يحتضر أو يكفن وأن كل ما تعرفه سمعته من المتهمة... ".[٢٢]

وفي فقرة أخرى من المحضر نفسه نجد ما يلي: "وفي جلسة استماع أخرى، أفادت الشاهدة أن المتهمة قالت لها في إحدى المرات: "عندما يموت شخص ما فإنهم يملئون جرة، يعتبرها المورسكيون مقدسة، ويضعونها في الغرفة التي قبضت فيها روح المتوفى، ويضعون في فتحتها عدد من المفاتيح، كما يضعون في داخلها أعوادًا من نبات إكليل الجبل". وعندما سألت الشاهدة المتهمة لماذا يقومون بهذه الطقوس، أجابتها بأن المفاتيح توضع للميت ليفتح بها أبواب السماء، وبأن هذه عادات قديمة كان يتبعها أجدادها وكل سكان

هورناتشوس، ويليها مأتم يمتد لثمانية أيام يضعون خلاله: "الجرة المقدسة" أمامهم ويرددون أدعية باللغة العربية وأنه في هذه الأيام الثمانية لا يطفئون القنديل مطلقًا في الغرفة التي قبضت بها روح المتوفى".[٢٣]

من خلال النص الأول يتبين أن مورسكي هورناتشوس مارسوا الشعائر الجنائزية نفسها التي أكدت عليها الشريعة الإسلامية، من تغسيل بالماء المعطر، وتكفين في قميصين، لكن النص الموالي، فيصف الطقوس التي تتلو إقبار الميت، حيث يستمر المأتم ثمانية يقرأ فيها الأدعية التي تسأل من الله الرحمة للميت. ولاشك أن قراءة القرآن الكريم كانت تصاحب قراءة الأدعية، وتشير الوثيقة إلى طقسين جنائزيين أظن أنهما ضاربان في القدم، أولهما وضع جرة مملوءة بالماء المعطر بنبات إكليل الجبل في الغرفة التي قبض فيها الميت، ولا يخفى ما للماء من دلالة نصت عليها جل الديانات، وهي دلالة ترتبط أساسا برمزية التطهير من الذنوب، وأرى أن الجرة وما فيها من الماء قد اكتسب قدسيتهما من القرآن والأدعية التي تقرأ استدرارًا للرحمة على روح المتوفى، مثلما يكتسب الماء المقدس عند المسيحيين قدسية من إشارة الصليب التي يرسمها الكاهن. أما عادة إبقاء الغرفة التي قبضت فيها روح المتوفى مضاءة فهي عادة قديمة أيضا، عاينتها في شمال المغرب عند بعض الأسر.

أما بالنسبة للقبر عند مورسكي هورناتشوس، فقد كان عبارة عن حفرة عميقة لا تدعم جوانبها، كما لا يوضع أي شيء على سطح القبر بعد إقبار الميت (أي لا يوضع عليه أي شاهد أو علامة، وهذه المسألة تخالف ما كان عليه الأندلسيون وكذلك المدجنون حيث الأبحاث الأركيولوجية التي تمت في مقبرة أبلة التي تعود إلى عصر المدجنين قد كشفت عن عدد مهم من شواهد القبور المكتوبة باللغة العربية).[٢٤]

وقد كان المتوفى يوضع في القبر على شقه الأيمن، في اتجاه الشرق، أي مستقبلا القبلة، وكان من بينهم متخصصون في إقبار الموتى يستدعون عندما يموت أحد من الهورناشيين وقد مكنتنا الوثائق من التعرف على اثنين منهم هما المورسكيان دييغو ربيولين، وفرانسيسكو كورتون، وهذا ما استخلصته من عدة محاضر محاكمتهما،[٢٥] وفي محضر محاكمة المورسكي فرانسيسكو دي أوكانيا كتب ما يلي: "أبلغ به راهب، قال أن المتهم توفي له صبي، فحفروا لدفنه قبرًا عميقًا جدًا، لكنه ليس متأكدًا أن مَنْ حفره هو فرانسيسكو دي أوكانيا، ولكنه على يقين بأن المتهم هو مَنْ طلب حفره".[٢٦] إن حفر المورسكيين لقبر عميق لدفن موتاهم مسألة غير مفهومة تمامًا خصوصًا، أن الوثائق لا تتضمن أي تفسير، كما أننا لا نتوفر على أي معطيات أركيولوجية، فهل ما وصفه الرهبان الفرنسيسكان والوشاة ممَنْ أبلغوا عن المورسكيين بالقبر العميق جدًا هو اللحد الذي نصت عليه السنة النبوية، أم يتعلق الأمر بممارسة محلية لها أسبابها ودوفعها؟

آخر ما سأتوقف عنده من عادات الدفن عند المورسكيين، هو عادة غريبة وردت في محضر محاكمة امرأة مورسكية اسمها غراثياس، جاء في المحضر ما يلي: "ورغم أنها كانت تحترم إرادة زوجها الذي كان حيًا آنذاك والذي استعار قفة كبيرة من ولده، وملئها بالتراب من أرض تزرع، ووضع ذلك التراب على جهة الرأس من قبر والدتها، فإنها احتجت عليه لأن ما فعله من عادات المسلمين".[٢٧] إن عادة وضع تراب مجلوب من أرض تزرع عادة مورسكية، لم أجد لها أثرا إلا في هذه الوثيقة رغم أنها "من عادات المسلمين". لكن يبدو أن مورسكيين آخرين من البلدة نفسها كانوا يضعون على القبر أشياء أخرى غير التراب الوارد في الوثيقة السابقة جاء في مرسوم كنسي ما يلي: "الذين يغسلون الموتى ويلفونهم في أكفان من الكتان، ويدفنونهم في مقابر منفصلة في قبور لم تدعم جوانبها، ويضعون عليها شواهد من الحجارة مع وضع الأغصان الخضراء أو العسل أو الحليب على القبر".[٢٨]

إن هؤلاء الهورناشيين الذين غادروا موطنهم قسرا سنة ١٦٠٩، استقر أغلبهم في مدينة الرباط، وخصوصًا في قصبة الوداية، وهناك أسسوا جمهورية أقلقت الأوربيين لعدة عقود بسبب الجهاد البحري. وفي مقابر الرباط بالذات نجد شواهد قبور، تختلف اختلافًا تامًا عما هو معروف في غيرها من المدن المغربية، فالشواهد مصنوعة من الحجر الرملي ومزخرفة بالشهادتين، وفي جهة الرأس من القبر نجد أوعية (سلطانية في بعض البلاد العربية، زلافة أو طاسة في المغرب)، يصب فيها حاليًا ماء الزهر المقطر، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن كذلك خلال القرون الخالية.

ثالثا: العقوبات

بعد أن عرفنا الطقوس التي كان يقوم بها الهورناشيون احتفالاً بولادة أطفالهم وتوديعًا لموتاهم، نمر الآن لنقف عند الأحكام التي كانت تصدرها محكمة التفتيش بليرينة ضد الهورناشيين الذين يخالفون المراسيم والقوانين الجاري بها العمل، في ذلك العصر الذي عرف قمة التعصب والكراهية لكل ما ليس كاثوليكي في إسبانيا عصر النهضة.

١/٣- العقوبات الجماعية:

الحرمان الكنسي عقوبة تفرضها الكنيسة على بعض أتباعها لحضهم على التوبة وقد وجدنا أن مورسكي هورناتشوس تم تهديدهم بالحرمان الكنسي من طرف الديوان المقدس وصدر في حقهم قرار بالحرمان فما هي تهمتهم؟

التهمة ببساطة هي التستر على من يمارسون إحدى شعائر الإسلام أو يقومون بطقس أو عادة ليست كاثوليكية إنها تهمة خطيرة وذات تبعات ونتائج خطيرة حيث أن الأمر لا ينتهي بمجرد الطرد الجماعة المسيحية ومنع المحرومين من القيام بالأسرار المقدسة بل إن الحرمان الكنسي تمهيد لما هو أفظع وأقسى جاء في مرسوم الإيمان

الموجه للهورناشيين: "إن متابعتكم وحرمانكم كنسيا أمر ممكن، لأنكم متواطئون مع المهرطقين بشتى الأشكال، ولهذا السبب قررنا التحرك بكل حلم وروية حتى لا نكون سببًا في هلاك أرواحكم، فربنا لا يريد هلاك المخطئ، ولكن صلاح حياته. ولهذا السبب قررنا إلغاء كل أشكال الرقابة التي فرضها عليكم المفتشون السابقون بشك دائم، بشرط أن تلتزموا بما طرحناه في مرسومنا، وبالطريقة التي أَمَرنا بها، وشجعنا عليها، وذلك في ظرف تسعة أيام من تاريخ قراءة هذا المرسوم أو الاطلاع على ما جاء به، بغض النظر عن الطريقة، وذلك بأن تلتزموا، وتبلغوا بكل ما عرفتم وسمعتم ورأيتم بشكل سري، وبدون إخطار أي شخص آخر، وبشرط ألا تشهدوا زورا ضد أحد، وفي حالة العكس، أي أن تمر المهلة دون أن تلتزموا بما أمرنا به، فسنتخذ الإجراءات الضرورية ليصدر في حقكم حكم بالحرمان الكنسي، وسيتم إعلان الحكم على العموم، وبعد تسعة أيام من إعلان الحرمان الكنسي، وفي حالة استمرار عصيانكم وتمردكم ستعتبرون محرومين كنسيًا، وملعونين، ومارقين، وفجرة، وأعوانا للشيطان، وخارجين عن كنيستنا المقدسة، وناكرين للأسرار السبعة المقدسة".[٢٩]

ونحن نعلم أن أغلب سكان البلدة كانوا مسلمين ونعلم أيضًا أنه باستثناء القلة القليلة من الوشاة الذين أرعبتهم عقوبات محكمة التفتيش فإن الأغلبية بقيت على دينها محافظة على أسرار الجماعة المسلمة جاء في مرسوم الإيمان أيضًا: "وعلى العصاة والمتمردين الذين يخفون الحقيقة ويتسترون على المعاصي فلتنزل المصائب واللعنات، كالتي نزلت على فرعون وقومه لعصيانهم وصايا الرب، ولينزل عليهم سخط الله كما نزل أهل سدوم وعمورة، وكما نزل بداثان وإبرام الذين خسفت بهما الأرض لذنوبهم ولعصيانهم الرب إلهنا... في حالة استمر بعض الأشخاص على عصيانهم وتمردهم، فبعد سنة سيعتبرون هراطقة، وسيعاملون ويحاكمون على هذا الأساس، وسيعاقبون بالعقوبات التي تطبق على المهرطقين، والمشتبه بأنهم مهرطقين، ولهذا نأمر بأن يتم إخبار الجميع حتى لا يدعي أحد جهله بهذا المرسوم... يوجه هذا المرسوم لكل رعية إشترمادورا، بما في ذلك رعية هورناتشوس، مع ضرورة إطلاع كل من المسيحيين القدماء، والكهنة، والمورسكيين المتنصرين، لخبروا عن مخالفات مواطنيهم لأجل مصلحة كنيستنا المقدسة. وفي الأخير نحذر أن مخالفة ما جاء به هذا المرسوم ستكون نتيجتها إثارة الشبهات، والتعذيب، والجلد، والانتقام الجماعي، ومصادرة الأملاك، والحرق، والطرد".[٣٠]

من خلال ما سبق يتبين؛ أن محكمة التفتيش أخرجت الهورناشيين من الجماعة المسيحية عبر مراحل ثلاث هي: التهديد بالحرمان، الحرمان، ثم الحكم بالهرطقة، وكل هذا تمهيدًا لمحو وجودهم إما عبر التصفية الجسدية (الإعدام حرقًا)، أو عن طريق الطرد الجماعي وهو ما تحقق فعلاً سنة ١٦٠٩ أي بعد صدور مرسوم الحرمان بسنوات قليلة.

٢/٣- العقوبات الفردية:

أول ما يجب أن نلفت إليه الانتباه في هذه النقطة، هو أن محاضر محكمة التفتيش لا تتضمن الحكم بالموت، إلا في حالات نادرة جدًا، لذلك لا يمكن التعرف على مَنْ تم الحكم عليهم بالإعدام حرقًا، من المتهمين الذي وصلتنا محاضر محاكمتهم، لأن هذا الحكم الذي كان يشار إليه بالعبارة التالية:(**relajación al brazo secular**) لم يكن يدون في المحاضر إلا في حالات نادرة واستثنائية. كما أن المتهم المحكوم عليه بالإعدام حرقًا لم يكن يبلغ بهذا الحكم القاسي إلا فوق منصة الإحراق، لكن في المقابل نجد في تلك المحاضر تفاصيل العقوبات التي أصدرتها محكمة التفتيش بليرينة في حق من تمت إدانتهم.

(٢/٣) ١- عقوبة الختان:

كانت بعض الممارسات والشعائر الإسلامية مسموحًا بها في الفترة التي تلت صدور مرسوم التنصير الإجباري، وخلال العقود الأولى من القرن السادس عشر، لكن مع مرور الوقت وتراكم الخبرة طورت محكمة التفتيش أساليبها الرامية إلى تدمير الثقافة المورسكية، فصارت تلاحق الجزارين الذين يذبحون الأنعام بالطريقة الإسلامية، وتحاكم كل مَنْ كتب كتابًا ذا مضمون ديني باللغة العربية، هذه التهمة التي صارت الأخطر في وقت قصير بعد أن أصبحت تدين كل من حاز كتابًا باللغة العربية أيًا كان مضمونه، وبعد ذلك بدأت ملاحقة كل من يقوم بالختان، هذه الشعيرة الدينية المحورية بالنسبة للمسلمين، ففي سنة ١٥٨١ أعطيت أوامر دقيقة لمحاكم التفتيش: "لتبدأ في التعامل بصرامة مع الآباء والأمهات الذين يختنون أبناءهم وذلك بأن تحكم عليهم بعقوبة الجلد"[٣١] لكن عقوبة الختان تم تشديدها بعد ذلك فالمورسكية مايور كارديناس التي ختنت ابناها والتي أوردنا مقتطفًا من محضر محاكمتها حكم عليها بما يلي: "بعد التشاور أجمع أعضاء المحكمة على أنها مذنبة فحكم عليها بما يلي:

- الخروج في موكب الإيمان (Auto de fe).[٣٢]
- مصادرة كل الممتلكات والعقارات.
- سنة سجنا.[٣٣]

كان ذلك سنة ١٦٠٦ أي ثلاث سنوات قبل صدور مرسوم الطرد الذي كان أول ضحاياه المورسكيون الذين سكنوا ما يعرف حاليًا بإشترمادورا.

(٢/٣) ٢- عقوبة إطلاق الأسماء العربية:

كان إطلاق أسماء عربية ممنوعًا في هورناتشوس منذ سنة ١٥٥٣ لكنهم كما رأينا استمروا في إطلاق أسماء المسلمين على أبنائهم ولم يكن هذا ليمر دون عقاب. لقد كان للوشاة (سواء كانوا من المسيحيين القدماء أو من المورسكيين الذين تركوا الإسلام) دور أساسي في تبليغ المخالفات لمفتشي الديوان المقدس إما عن طريق الاتصال المباشر بمفتشيه وبشكل غير مباشر عن طريق نقل الخبر إلى الرهبان

الفرنسيسكان والكهنة الذين كانوا يتولون إبلاغه لمفتشي الديوان ومن بين المخالفات التي كان يُعاقب عليها ويقوم بإبلاغها الوشاة نجد المناداة بالأسماء الإسلامية والتي كانت عقوبتها:

- في المرة الأولى بثلاثة أيام سجنا.
- في المرة الثانية بغرامة قدرها ستمائة ريال مرابطي[٣٤] وستة أيام سجنًا.
- في المرة الثالثة بالنفي مدة سنتين بمسافة لا تقل عن خمسة فراسخ من هذه البلدة.[٣٥]

(٢/٣) ٣- عقوبة تغسيل الميت ودفنه حسب الشريعة الإسلامية:

من خلال الاطلاع على محاضر هؤلاء الموريسكيين:

- الموريسكية المدعوة بينيت، التي حضرت امرأة مسيحية إلى منزلها فوجدت مجموعة من النسوة يغسلناها فوشت بهن إلى محكمة التفتيش.[٣٦]
- الموريسكية المدعوة غراثياس، التي وضع زوجها ترابًا مجلوبًا من أرض تزرع على قبر والدها.[٣٧]
- الفقيه الموريسكي دييغو ريبولين، الذين كان يستدعى عندما يموت أحد الموريسكيين ليشرف على تغسيله وتكفينه ودفنه.[٣٨]
- الفقيه الموريسكي فرانسيسكو كورتون الذين كان يستدعى هو أيضًا عند وفاة أحد الموريسكيين ليقوم بنفس ما كان يقوم به الفقيه السابق.[٣٩]

تبين أن عقوبة تغسيل الميت، أو تكفينه، أو دفنه حسب الشريعة الإسلامية هي:

- الاعتراف بالهرطقة (Abjuracion de vehemente).[٤٠]
- الخروج في موكب الإيمان، مع لبس ثوب العار(Sambenito)[٤١]، وعلى رؤوسهم الكوروثا (Coroza).[٤٢]
- ٢٠٠ جلدة.
- الانتقام الشعبي (Venganza publica).[٤٣]

خاتمة

لقد شكلت هورناتشوس، البلدة الصغيرة المعزولة في جبال اشترمادورا إحدى المعاقل الأخيرة للإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية، بسبب إصرار سكانها على الحفاظ على خصوصياتهم الدينية والحضارية، وبعد الطرد الإجباري أيضًا حاول سكانها الحفاظ على ملامح هويتهم الأندلسية، فشكلوا جمهورية فريدة ومتميزة، حظيت بشهرة واسعة وجذبت إليهم أنظار الباحثين المهتمين بالتاريخ الإسباني والمغربي والأندلسي، فألفت حولهم الكثير من الدراسات بالاعتماد أساسًا على مجموعة من المدونات التاريخية، لكن وثائق محكمة لبرينة التي حاكمت وعاقبت مئات آلاف الموريسكيين لم تُستغل لحد الآن إلا بشكل محدود، ومن شأن هذه الوثائق أن تكشف على المعطيات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية لموريسكي إشترمادورا، بشكل عام وموريسكي هورناتشوس بشكل خاص، وأرى شخصيًا أن هذه الوثائق التي لم يُنشر معظمها لحد الآن، ومن الضروري مراجعة وتدقيق وضبط ما ورد في المدونات التاريخية لعدة أسباب منها:

- موقف مؤلفي تلك المدونات من الموريسكيين ومن المسألة الموريسكية، وبالتالي تطرح مسألة الموضوعية.
- اقتصار تلك المؤلفات على جانب دون آخر (تغفل تلك المؤلفات الجانب الفكري والاجتماعي والاقتصادي وتركز على الجانب السياسي).
- تركيز تلك المدونات على بعض الجماعات الموريسكية دون غيرها.

إلى غير ذلك من الملاحظات التي يمكن تسجيلها بخصوص المدونات التاريخية الإسبانية المكتوبة خلال القرون الخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر.

تعريب الكلمات المستخدمة في الإحالات	
الأرشيف التاريخي الوطني	A.H.N
الملف	Legajo
مجموعة الوثائق الخاصة بمحكمة التفتيش التي كان مقرها بلدة لبرينة	Sección de Inquisición Llerena
كتاب	Libro
ورقة	Folio

الهَوامِشُ:

(١) هي إحدى بلدات إقليم بطليوس, الواقع في منطقة إكستريمادورا، عرفت هذه البلدة في التاريخ الإسلامي كونها آوت جالية مسلمة مهمة بعد سقوط الأندلس حافظت على هويتها العربية الإسلامية رغم عمليات الاضطهاد التي نهجتها الكنيسة والسلطات الأسبانية. وفي ١٦٠٩ انتقل مسلمو هذه البلدة إلى الرباط في المغرب حيث اشتهروا بتأسيس جمهورية أبي رقراق القائمة على الجهاد البحري.

(٢) نسبة إلى إشترمادورا إحدى المناطق الستة عشرة الإسبانية التي تتمتع بالحكم الذاتي تقع في غرب إسبانيا ولها حدود طويلة مع البرتغال، عاصمتها مدينة ماردة.

(٣) ليرينة صغيرة من بلدات اشترامادورا تتبعا إداريًا لإقليم بطليوس ضمت أشرس محكمة تفتيش في تاريخ إسبانيا بالنظر إلى عدد ما حاكمتهم.

(٤) **بطليوس**: أكبر مدن منطقة الحكم الذاتي لإشترمادورا وعاصمة إقليم يحمل اسمها وتعد بلدة هورناتشوس من البلدات التابعة لها.

(٥) المدجنون المسلمون الأندلسيون الذين باقوا في قراهم وبلداتهم بعد سقوطها في يد الممالك الإيبرية والذين سمح لهم بممارسة الشعائر الإسلامية إلى غاية سنة ١٥٠٢ بالنسبة لقشتالة وسنة ١٥٢٦ بالنسبة لأراغون.

(6) Pedro Longas، La vida religiosa de los Moriscos، Imprenta Iberica، Madrid، 1915

(7) AHN. Seccion Inquisicion de Llerena. Legajo 2707

(8) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2710

(9) AHN. Seccion Inquisicion de Llerena. Legajo 2707

(10) Ibidem.

(11) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2710.

(12) Ibidem.

(١٣) عبارة فقيه مورسكي تحتاج في الحقيقة إلى تعريف دقيق وربما كان الفقيه المورسكي هو ذاك المورسكي حافظ لبعض الصور والملم ببعض الشعائر الإسلامية البسيطة كما ويجب أن نفهم هذه العبارة في سياقها ففقهاء بداية القرن السادس عشر يختلفون عن فقهاء القرن السابع عشر ومن عاشوا في بلنسية وغرناطة يختلفون جذريًا عمَنْ عاشوا في قشتالة أو إشترمادورا.

(١٤) رهبانية القديس يعقوب تنظيم رهباني عسكري تأسس خلال القرن الثاني عشر الميلادي، بهدف حماية من يقصدون مدينة سنتياغو دي كومستيلا لزيارة قبر القديس يعقوب (أحد الحواريين حسب الأسطورة) ولطرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبرية، وفي سنة ١٥٢٣ صار تحت إمرة ملوك إسبانيا وعندها أصبحت مهمته الأساسية حماية الحدود الفاصلة بين إشترمادورا والبرتغال، كان مقره الأساسي مدينة أقليش.

(15) AHN. Ordenes Militares.Archivo Historico de Toledo. N 59036

(16) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2710.

(١٧) تولي عمر الخلافة... وغيرها من المناسبات. Sucesión de Umar ، عيد الزرع Fiesta de Grano

(١٨) أرجح أن تكون الكلمة عربية الأصل وأن تكون الحصاد أو الحصائد وبالتالي يكون لمورسكي هورناتشوس عيدان فلاحيان عيد الزرع وعيد الحصائد أو الحصائد.

(19) AHN. Seccion Inquisicion de Llerena. Legajo 2707.

(20) Ibidem.

(21) Ibidem.

(22) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2710.

(23) Ibidem.

(24) Gadea «Javier Jimenez », Estelas funerarias islámicas de Avila, clasificación e inscripciones، espacio، tiempo y forma. serie i, nueva epoca. prehistoria y arqueologia, t. 2، 2009. pp. 221-267.

(25) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 1988.

(26) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2710.

(27) Ibidem.

(28) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2707.

(29) Ibidem.

(30) Ibidem.

(31) AHN. Seccion Inquisicion. Libro 936, Folio. 300.

(٣٢) كان المدانون من طرف محاكم التفتيش يخرجون في موكب يجوب شوارع البلدات أو المدن للتشهير بهم ولتنفيذ أحكام الجلد، والانتقام الشعبي، وينتهي الموكب عند منصة الإحراق، حيث يبلغ المحكوم عليهم بالأحكام الصادرة في حقهم، وفي الوقت نفسه يُعدم من حكم عليه بالإعدام أو يحرق رسم بالحجم الطبيعي إذا كان ميتًا أو محكومًا غيابيًا. والجدير بالذكر؛ أن هذا الموكب كان يجري في جو احتفالي.

(33) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2710.

(٣٤) ريال مرابطي نقود ذهبية إسبانية قديمة كان وزنها يبلغ حوالي ٤.٥ غرام.

(35) A.H.N. Ordenes Militares.Archivo Historico de Toledo. N 59036.

(36) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 2710.

(37) Ibidem.

(38) Ibidem

(39) AHN. Sección Inquisición de Llerena. Legajo 1988.

(٤٠) كان على المدانين من طرف محكمة التفتيش أن يعترفوا بالمخالفات التي كانوا يرتكبونها والتي أدينوا بسببها ويتبع الاعتراف بالهرطقة مجموعة من العقوبات هي السجن لمدة سنة، لبس ثوب العار لمدة سنة أو سنتين، مصادرة نصف الممتلكات، النفي لمدة تقل عن ست سنوات.

(٤١) ثوب العار أو الثوب المقدس لباس كان يلبسه المحكوم عليهم من طرف محكمة التفتيش وهو يختلف من مدان إلى آخر حسب طبيعة التهم. والجدير بالذكر؛ أن ثوب العار كان يحتوي على مجموعة من الرسوم التي تحدد نوعية العقوبة.

(٤٢) **الكوروثا**: قلنسوة طويلة ذات نهاية حادة كان على المدانين من طرف محكمة التفتيش، وقد كانت تحتوي على رسوم تحدد نوعية العقوبة

(٤٣) كان المدانون المعاقبون من طرف محكمة التفتيش يتعرضون للضرب والتنكيل من طرف الجمهور المحتشد أثناء مواكب الإيمان.